بين كرامة الثقافة

وضآلة المهنـــة

فى العالم الأوربى والأميركى ملايين المتعلمين الذين تلقى بهم المقادير — مكرهين — إلى المهن الضئيلة فى غير رفق ولا رحمة . فلا يقال إن العلم بذلك قد أهينت كرامته وانتهكت حرمته . لأنهم يفهمون العلم على أنه سبيل الرجولة التى تدفع بصاحبها إلى الضرب فى رحمة الحياة فى غير تردد أو تبرم حتى يساهم فى الانتاج وقد أنف من أن يعيش حيلة على غيره . . أما نحن فنفهم العلم على أنه الوسيلة الى المكاتب الفخمة والمراوح الجميلة والأبهة المرموقة والفخفخة المغبوطة . ولذلك أصبحت للعلم فى مصر كرامة «محلية» خاصة بهذا البلد التعس ينبغى إن ذكرتها أن ترفق بها وألا تشتد عليها وإلا فقد أدميتها بشدتك وآذيتها بقسوتك . !

هذا التوجه فى مظاهر الحياة آية الأمم عندما تذهب إليها الشيخوخة ويمضى عهد شبابها . ولست أجد شاهدا على صدق هذا أعدل من الدولة الرومانية التى أصابت فى عهد فتوتها من الغنى والثراء والأسرى ما أدخل الغرور إلى نفوس أبنائها . فالوا عن فلاحة الأرض واستثمارها ، وجنحوا عن الاشتغال بالجندية الى اللهو والترف . فلم يغن عنهم مالهم وعبيدهم وفنونهم وآدابهم وقوانينهم وعلومهم . وارتج عرش دولتهم أمام القبائل المتوحشة من الصقلب والكلت والجرمان . وما لبث التاريخ أن شهد مصرع الدولة العظيمة ومجدها يتوارى ، وعزها يغرب . وجلالها يميل الى الانحدار . . !

نعلم أن من طبيعة المجتمع أن يحن الى الكمال . ويتزع الى المثل الأعلى . ولا يقيم على حب «الواقع» فيطمح الى ما ينبغى أن يكون . ولا أكاد أشك فى أن المجتمع لا يسعه أن يحقق مثله الاعلى كما ينبغى أن يحقق ان ظلت المهن الثانية فيه مقصورة على الأميين والجهلة . لأن جمودهم الذهنى وظلامهم العقلى يحولان دون تطور هذه المهن وتدرجها الى الكمال . . هكذا حدثنا تاريخ الزراعة فى مصر . . شغل بها الجهلة ومال عنها المثقفون من طلاب الزراعة الذين انطلقوا كلما أتموا دراستهم يبحثون عن وظيفة يظفرون فيها بالمكتب والمروحة وما اليهما من راحة ونعيم . . فكانت النتيجة أن الفلاح المصرى ما زال يستخدم من الآلات ما كان يستخدمه أجداد أجداده الأولين . ولو مارس المهنة المثقفون من طلاب الزراعة لتطورت على أيديهم وسارت الى الكمال بين الحين والحين . وبدت آياتها فى شتى مناحيها . ولكن هؤلاء قد جهلوا أن غاية العلم تنحصر فى « خدمة المجتمع » . وليست فى شك من أن السائح الذى يرى معالم النهوض تدور فى مصر واضحة فى العمارة والعلم والفن والاقتصاد . ثم يشهد الانحطاط الذى يدب فى مهنة الزراعة عندنا سيأخذه الذهول والعجب . . اذا أردنا أن نحقق للمجتمع مثله الأعلى الذى ينشده ونحن الى تحقيقه فلنعمد الى شتى طبقاته ونوجد بينها التعاون الفكرى ليوجد التوازن فى التطور الذى يعم الحياة ويسود مرافقها . .

وأظن أن المجتمع يحسن الى نفسه كثيرا إن هو غير نظرته الى المهن الثانية ، لأن الاحتقار الذى يصبه الناس عليها يباعد بينها وبين رغبة المثقفين فى الاشتغال بها . . كان توماس كارليل يتغنى بالبطولة ويناشد الانسانية عبادة أصحابها واجلال شأنهم . فما تاريخ الانسانية فى زعمه الا تاريخ العظماء من أبنائها . . ! ولكن سبنسر يقول ان الطل يبغى عظمته على حساب من يخل عليهم المجتمع باحترامه . . فمن جهاد الجندى المسكين استعار القائد عظمته ومن شقوة العامل المعذب استمد الثرى راحته . فمن الظلم والجور أن نقول ان تاريخ الانسانية بأسرها تاريخ العظماء من أفرادها .

ولكن الانسانية قد بدأت تكفر عن سيئاتها حين هبت تحيى الجندى المجهول — فى ميدان الحرب — وترفع من شأنه وتجل من ذكره . وقد بقى عليها أن تمضى الى اجلال الجندى المجهول فى ميدان السلم ، اذ ما زالت تعيش على عرق جبينه فى الكثير من مناحى حياتها . وأكبر ظنى أن هذا الاجلال الذى سيظفر به الجندى المجهول قبل أن يواريه التراب . خير ما يمهد للمثقفين الطريق الى الاشتغال بالمهن الضئيلة .

تساءل صامويل سمايلز : أيهما يخفض أو يرفع من شأن الآخر : المهنة أم الانسان . . ؟ انما يرفع من شأن المهنة الثانية ناضج الفكر سليم العقل ، وكأنما تستعير المهنة من جلاله جلالة . ومن رهبة مكانته قداسة . . وهذا بالاضافة الى انتاجها الذى سيربو ويزداد على يديه . . واعتبر عكس هذا فى المهن الرفيعة العالية يوم يشغلها من ليس أهلا لها . .

ولا ينبغى أن تخشى على عبقرية المثقفين أن تذوى وتفنى فى تفاهة المهنة . فان العبقرية الصحيحة لا تستكين لظلم الزمان ولا تخضع لحكم القدر . وان آياتها لتبدو وتلوح ولو كرهت ظروف صاحبها وعملت على طمس معالمها . . فاتركوا المثقفين يعملوا ويضربوا فى رحمة الحياة حيثما ألقت بهم المقادير . والجهاد خير محك للعبقرية وأصدق ميزان لها .

توفيق الطويل